الملحمة في الشعر العربي

دكتور عبد الله محمود محروس

ربما يثير قولنا بوجود الملحمة في الشعر العربي ، شك القارئين وانكارهم ، وفي أقل القليل يدفع الى مشاعرهم قدرا كبيرا من الدهش المشوب بالحذر والترقب ، انتظارا لما سنقول ، خاصة وقد وقر في الاذهان ، أن الملحمة فن قديم ظهر عند الاغريق ، ولم يتخط مرحلة الطفولة الانسانية .

تلك المرحلة القادرة على استيعاب الخوارق والاذعان لها ، ثم الاعتقاد بامكان حدوثها بالصورة التي وردت عليها في الملحمة .

فقد تعددت الآلهة عندهم تعددا مفرطا ، واختلطت أعمال الآلهة القادرة بأفعال الانسان العاجز وشهواته ، وأصبح الاله في نظرهم مزيجا من الاثنين معا : الانسان الذي غرق في مطالب الجسد ورغبات النفس ، والاله الذي يفرض قهره وسطوته على البشر ، ويرغمهم على ان يفزعوا اليه ضارعين ، ويطلبوا رضاه بما يقدمونه من قرابين .

والبطل في عرفهم من اكتسب هذه الصفات أو أصبح قريبا منها ، فليس بدعا ان يؤمنوا بكل ما جاء في اليانتهم من خوارق الافعال ، لذا قيل : ان الملحمة لا تروج الا في مجتمع ساذج لديه الاستعداد الفطري لتصديق ما يقال له ، وشاعرهم لم يكن أرقى منهم فكرا ، فلم ينظم شعره ليخدعهم في مشاعرهم ، بل هو أيضا

مثلهم نظم ما اعتقد أنه الصواب والواقع . حتى اذا ارتقى الفكر البشرى ، لم يعد مثل هذا اللون من الشعر يصلح له ، بل ان المحاولات التى قام بها الشعراء في الاداب العالمية بعد ذلك ، لم يلحقها بعض النقاد بالملاحم « فقد كتب في القرن السادس عشر مثلا الشاعر الفرنسي الكبير « رونسار » قصيدة مطولة سماها ملحمة ، عنوانها « الفرنسياد » كما كتب في ايطاليا في أوائل عصر النهضة شاعرها الاكبر « دانتى » قصيدته المطولة من ثلاثة مجلدات كبيرة سميت « الكوميديا الالهية » التى يصف فيها رحلته بمصاحبة « فيرجليوس » الى الجحيم والى الفردوس والى المطهر ، المعروف في ديننا الاسلامى « الاعراف » وكذلك الامر بالنسبة للمطولات الأخرى التى كتبت منذ عصر النهضة الاوربية حتى اليوم ، كالفردوس المفقود « لملتون » والفردوس المسترد ، له أيضا ، والهنرياد أى أنشودة الملك هنرى « لفولتير » وأسطورة القرون ، «لفيكتور هيجو» فكلها من المطولات التى نسميها أحيانا من باب التجوز ملاحم ، وان لم تكن في الواقع كذلك ، وذلك لعدم اتسامها بالخصائص الفنية والروحية التى عرفتها فن الملاحم عند رائدهذا الفن «هوميروس» (١)

هذا رأى لم يخل من المغالاة ، والافراط في الشطط ، فاليادة هوميروس هى النموذج الكامل لهذا النوع من الفن عنده ، فلا بأس من ذلك ، ولكن اذا لم يكن في مقدور الفن بعد ذلك أن يتطابق معه ، فلا أقل من أن يقترب منه ويتشبه به ، فالمحاكاة على ما أعتقد ممكنة ، والا أصبح هذا النموذج ساميا سمو الاله الذى يحرق من يقترب منه بالشهب ، ولما صح أن نعده نموذجا ، اذ أن النموذج مثال يحتذيه كل من له القدرة على ذلك ، فلا يسوغ للدكتور

---

(١) دكتور محمد مندور ـ الأدب وفنونه ص ٤٩ ـ ٥٠ دار نهضة مصر

محمد مندور أن يقول : « وبالرغم من أن عشرات الشعراء في كافة الآداب الاوربية قد كتبوا بعد ذلك قصائد شعرية مطولة ومقسمة الى فصول أو أناشيد متلاحقة في شتى الموضوعات وأرادوا تسميتها « ملاحم » فان هذه المحاولة لم تنجح بعد أن حددت ملامح الملحمة تحديدا نهائيا بفضل عبقرية « هوميروس » في الاليذة والاوديسة ، ثم في « انيادة فيرجليوس » (١) ٠

وهكذا في يسر وعفوية ألغى كل الملاحم الحديثة ، ولم يعترف بغير القديم منها ، في الغرب والشرق ، فقد قال : « واقد عرف الشرق القديم هو الاخر فن الملاحم الشعرية ، ولدينا من الهند القديمة ملحمتان هما « المهابراتا والرميانا » ولدينا من الشرق في العصر الوسيط ملحمة «الشاهنامة» عن الشاعر الفارسي الكبير (الفردوسي) وقد ترجمها المرحوم « عبد الوهاب عزام » وهذه الملاحم الثلاثة تتوفر فيها نفس الخصائص التي حددت للشعر الملحمي في الاليذة والاوديسة » (٢) ٠

اذن النموذج صلح لان تتطابق معه آثار اخرى مساوية له في القيمة الفنية ، واصبح من الممكن ان تنشأ ملاحم اخرى لها نفس المعطيات الابداعية مهما اختلفت العصور واللغات ، ثم اذا تجاوزنا هذا الراى الصارم المتشدد ، ورأينا نقادا آخرين يقرون بوجود الملحمة في الشعر الاوربى ابان النهضة وبعدها ، فاعترفوا بما انكره الدكتور محمد مندور ، يقول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى عن الفردوس المفقود « لميلتون » وتقع هذه الملحمة الرائعة في اثنى عشر نشيدا ،

---

(١) المرجع السابق ص ٤٩ ٠
(٢) المرجع السابق ص ٥٥ ٠

وتصور خروج آدم من الجنة بعد اغراء الشيطان له ، وهذه الملحمة لها طابع دينى خاص » (١) ٠

ويقول آخر « ولقد كتب ميلتون ملحمتيه « الفردوس المفقود » و « الفردوس المردود » فجعلهما صورة من صور التعبير عن المسيحية كما فهموها » (٢) ٠

وفي ظنى ان كل النقاد اعترفوا بالملاحم التى أنشأتها اوربا في عصر النهضة ، ولم يقف منها موقف الرفض سوى الدكتور مندور ، وان كانوا قد اشتركوا معه جميعا في الاغضاء من شأن الملاحم التى نظمها شعراء العربية من أمثال شوقى وأحمد محرم وجبران ، ورأوا أنها خلت من عنصرها المهم وهو الاسطورة القائمة على الخرافة والاغراق في الخيال ، وقالوا ان فن الملحمة قد انقرض باتقراض العقلية البدائية التى تنظمه مجافيا للواقع والمنطق ، والتى تتذوقه بشيء من الابهار والاجلال ٠ كما حدث للمجتمع الاغريقى حين اتخذ الالياذة كتابه المقدس ٠ ونحن لا يعنينا كثيرا اعتراضهم على الملاحم الحديثة في الشعر العربى ، وانما الذى يهمنا في المقام الاول ، والذى من أجله أقمنا هذا البحث ، هو انكارهم وجود الملاحم في الشعر العربى القديم ، واصرارهم في جلد ومثابرة على التعليل لهذا الانكار ، فهم يقولون بأن سبب خلو الشعر العربى من الملاحم يرجع الى ما فيها من ذكر الآلهة المتعددة والاسلام يحارب ذلك ، وهى آلهة عامة يدين لها الشعب كله ، متخيلة وغير مجسدة ، على خلاف ما كان

---

(١) د٠ محمد عبد المنعم خفاجى ـ دراسات في الأدب المقارن ص ٨٨

(٢) الأستاذ / نجيب محمد البهتيني ـ تاريخ الشعر العربى ص ٢٥٢ دار الكتاب العربى بيروت ٠

عليه كفار الجاهلية الذين كانوا ينصبون الاها خاصا بكل قبيلة لا يدين له الا أبناء هذه القبيلة الواحدة ، وأنهم كانوا يتخذونها تقربا وزلفى الى الله الواحد ٠

والحقيقة ان كل ذلك تعلات لا تقف على سند يقينى من الواقع والتاريخ ، فالفردوس أنشأ ملحمة مكتملة الفنية باعتراف الجميع حتى الدكتور مندور الذى رفض كل المحاولات التى تمت بعد ذلك في الشعر الاوربى والعربى على السواء ، اذن فالشاهنامة ملحمة ، والفردوسي مسلم ، والسلطان محمود الغزنوى ، الذى كلف الشاعر الدقيقى باتمامها مسلم أيضا « فلو أن التعارض بين الاسلام والملحمة يحول دون كتابة شاعر مسلم فيها ، لما كتب الفردوس الشاهنامة » (١) ٠

وهذه الملحمة كتبت في القرن الرابع الهجرى ، فهل يمكن القول: أن العرب لم يطلعوا على الملاحم قبل هذا التاريخ ؟ نحن لا نستطيع أن نزعم ذلك ، ولا يستطيعه أحد ، فقد ثبت أنهم عرفوا الشعر اليونانى وأنشدوه « ذكر يوسف الطبيب أنه كان يوما عند اسحاق ابن حنين ، فبصر بانسان له شعر قد ستر وجهه عنه ، وهو يمشي وينشد شعرا بالرومية لأوميروس الشاعر ، قال يوسف الطبيب : فشهدت نغمته بنغمة صبى كنت أعرفه ، فصحت به ، فأجاب وكان هذا الفتى حنين بن اسحاق (٢) ٠

فيوسف الطبيب سمع وفهم ورد الشعر الى صاحبه وهو

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥١ ٠
(٢) أخبار الحكماء ص ١٢٠ ٠

هوميروس ، وحنين بن اسحق يتشبه بما كان يصنعه هوميروس حين كان يجول في طرقات أثينا يتغنى بالياذته بل بالغ في التشبه حينما أرخى شعره على عينه ليحجب الرؤية عنه ، ليكون قريبا من هوميروس الضرير ، هذا يشهد بأن العرب كان فيهم من يعرف الالياذة وصاحبها ، ويفهمها عندما تنشد له ، وحنين هذا كان يعيش في العصر العباسي ، في زمن المتوكل « بل انى أستطيع أن أخلص من هذا الى تصوير أن هوميروس كان أصلا من أصول تمام اللغة اليونانية في ذلك الزما (١) ومع ذلك لم نسمع أن أحدا قام بترجمة واحدة من ملاحم الاغريق القديمة ، ولكن لا يمنع هذا من تأثرهم بها ٠

وكلمة ملحمة ليست جديدة ولا طارئة في لغتنا العربية ، فقد عرفت بمعناها المراد وما قصد منها في الفن الشعرى ، فالملحمة في اللغة هى القتال (٢) ، والملاحم جمع ملحمة وهى الواقعة العظيمة في الفتنة (٣) ، وجاء في البيان والتبين : الملحمة الواقعة العظيمة في الفتنة (٤) ٠

ومن معانيها أيضا التأليف والاصلاح والاحكام من لحم الأمر بمعنى أحكمه ، لان من ألقاب صاحب الشريعة الاسلامية صلى الله عليه وسلم « نبى الملحمة » وقالوا في تفسيرها : نبى القتال ، أو نبى الصلاح وتأليف الناس كأنه يؤلف أمر الامة » (٥) ٠

هذا معنى الملحمة في اللغة ، وقبل أن نتعرض للمقصود منها

---

(١) تاريخ الشعر العربى ص ٢٤٨ ٠
(٢) المصباح المنير ص ١٠١ ، ط المطبعة الخيرية سنة ١٣١٠ هـ ٠
(٣) الأغانى جـ ٢ ص ٩ ، البيان والتبيين جـ ٢ ص ٣٦ ٠
(٤) البيان والتبيين ٢/٣٦ ٠
(٥) مقدمة الالياذة للبستانى ص ١٦٣ ٠

فنيا عند العرب يجدر بنا أن نلم بأقوال النقاد وتعريفاتهم لهذا اللون من الفن الشعرى ، يقول الدكتور محمد غنيمى هلال عنها : الملحمة قصة شعرية موضوعها وقائع الابطال الوطنية العجيبة التى تبوئها منزلة الخلود من بنى وطنهم ، ويلعب الخيال فيها دورا كبيرا ، اذ تحكى على شكل معجزات ما قام به هؤلاء الأبطال ، وما به سموا عن الناس ، وعنصر القصة واضح في الملحمة ، فالحوادث تتوالى متمشية مع التطورات النفسية التى يستلزمها تسلسل الاحداث ، ولكل ملحمة أصل تاريخى صدرت عنه بعد أن حرف تحريفا يتفق وجو الخيال في الملحمة ، وهى محكية لشعب يخلط بين الحقيقة والخيال ، مما يسيغ أن تحدث خوارق العادات ، وأن تتراءى الانس والجن أو الآلهة ، والأبطال فيها يمثلون جنسهم وعصرهم ومدنيتهم ، فعالم هوميروس الذى صوره في الالياذة والاوديسة عالم اقطاعى حربى ، وأغنية رولان ، تصوير لما ساد عصرها من حروب صليبية ثم ان هؤلاء الابطال لا يمثلون أفرادا بل هم رموز كلية لمثل تحتذى » (١) ٠ والدكتور محمد مندور يعرفها بأنها أن قصة شعرية بطولية قومية تقوم على خوارق الامور ، وتختلط فيها الحقائق بالأساطير ، وتتغلغل العقائد الدينية والروحية في حناياها » (٢) ٠

ويقول الدكتور طه حسين في تحديد ملامحها وخصائصها الفنية: « القصة الطويلة التى تصف أعمال أبطال عظام ، والتى كثيرا ما تصف الحروب والقتال ، ولذلك يطلق عليها بعض الادباء اسم

---

(١) د٠ محمد غنيمي هلال ـ النقد الأدبى الحديث ص ٩٣ دار الثقافة بيروت سنة ١٩٧٣ ٠

(٢) د٠ محمد مندور ـ الأدب وفنونه ص ٤٥ ٠

الملحمة ٠٠٠٠٠ وتعد الملحمة في نظر كثير من الناقدين أجل أنواع النظم وأعظمها خطرا وأهم ما تمتاز به الملحمة الأمور الآتية :

١ ـ تشتمل قصتها على حوادث خطيرة تدور في العادة حول بطل عظيم ٠

٢ ـ تكون لغتها فخمة رفيعة الأسلوب ، ووزن قوى ومتين ، وللملحمة عادة وزن واحد لا تخرج عنه ٠

٣ ـ تشتمل أكثر الملاحم على حوادث خارجة عن المألوف ويكون أشخاصها مزيجا من الأبطال العظام ومن الآلهة أحيانا الذين يشتركون في الوقائع وينصرون فريقا على فريق ، وقد يكونون أنصاف آلهة أو أشخاص من خرافية صرفه ٠٠٠٠ هذا في الملاحم القديمة المتأخرة فان بعض مؤلفيها يقتدي بالقدماء بعض الاقتداء ، فيعالج موضوعا دينيا جليلا ، كما فعل دانتى في الكوميديا الالهيـة ، أو ملتـون في الفردوس المفقود ، ولكن البعض مثل آريوستو ، قد نظم قصـة بشرية في ملحمته الشهيرة « أورلاندو الغاضب » (١) ٠

هذه هى الملحمة عندهم ويكاد يجمع الرأى على ضرورة وجـود عنصر الخرافة فيها فما الخـرافة ؟ هل تتعلق بالماضي أو من الممكن أن ترتبط بالمستقبل والحاضر أليست الخرافة من صنع الخيـال المحض ؟ أليس هو الذى ضخم الحدث الصغير حتى أخـرجه عن واقعيته نأى به عن دائرة الممكن ؟ اذا كان الامر كذلك ، فلماذا لا يباح لهذا الخيال صنع الأحداث ابتداء واخراجها على النحو الذى يـراه

---

(١) د٠ طه حسين ـ التوجيه الأدبى ص ١٨٨ ـ ١٨٩ ٠ دار الكتاب العربى بمصر سنة ١٩٥٣ ٠

صالحا للملحمة وبطريقة ترضي الذوق الفنى وبأسلوب مقبول ؟ ومع ان مؤرخى الآداب العالمية حددوا الخصائص الفنية للملحمة من خلال دراستهم للالياذة والاوديسة وما استنبطوه منهما من القواعد والاسس رأينا بعض الملاحم تخرج عن التقليد الدقيق ، والتطـــابق المحكم ، بل ان هناك فرقا بين الالياذة والأودية في طـريقة التنـــاول ، « ونحن نلاحظ أنه اذا كانت الالياذة قد صورت البطولة الجسدية الخارقة في شخص أخيل فان الأوديسة قدصورت بطولة الذكاء البشرى في شخصية بطلها « أوليس » فهو بطل ليس قوى الجسد ، بل هو واسع الحيلة ٠٠٠٠ وفي تطور مفهوم البطولة على هذا النحو ما يحمل بعض اساتذة الادب ونقاده على القول بأن الاوديسة ربما كانت أحدث عهـدا من الالياذة وأنها قد كتبت في عهد تطور فيه مفهوم البطولة عند القدماء حتى حلت بطولة الذكاء والاعجاب بها محل بطولة الجسد » (١) وان دل هذا على شيء فانما يدل على ارتقاء العقـــل البشرى الذى أنس لبطولة الذكاء وأعجبته وهذا يعطى مؤشرا لامكان التصرف في وسيلة الابداع دون الاخلال بالقيمة الفنية للأثر الفنى من حيث المحافظة على الأسس المكونة له والقواعد التى يجب مراعاتها فيه « وفي كل مصادر التجارب البشرية السابقة وهى الأسطورة والتاريخ وواقع الحيـــاة والمجتمع المعاصرين لا بد أن ينهض الخيـــال بدوره في اســـتكمال الصورة ، واضافة الخطوط التى تنقصها ليكتمل لها البنـــاء الفنى والقدرة على التعبير والتأثير ، فهناك تجارب قـــد لا يكون لها أى أصل في الاساطير أو التاريخ أو أحداث الواقع الفعلى ، بل يخلقهـــا كلها خيال الكاتب المبدع القادر على خلق الحياة (٢) ٠

---

(١) د٠ محمد مندور ـ الأدب وفنونه ص ٥٣ ٠

(٢) د٠ محمد مندور ـ الأدب وفنونه ص ٩٠ ٠

اذن مباح للخيال أن يبتكر حدثا لم يسبق الى الوجـود قبله ، وأن يؤسسه على غير مثال في مجال الادب والفن ، والاسطورة ما هي الا نتاج خيال مبتكر وان كان ساذجا ، لانها ميراث الانسـانية في عصورها السحيقة ، فالانسان البدائى الاول كان يتعامل مع المجهول الذى لا يقع تحت ادراكه الحسي ، بالحذر والحيطة والخوف من كل مظاهر الطبيعة حين تتبدى في عنفوانها وشموخها ، وحين لا يجـد تعليلا لصفير الريح وهدير الرعد ، واضاءات البرق الخاطفة الوهاجة ، وحين يبتلع الموج المزمجر عزيزا عليـه ، يعييـه البحث عن العلة التى وراء هـذه الامور فيخلق له خياله سـببا يقنع عقله المسطح الذى لم تعمقه معرفة علمية بعد ، فينشيء قصصا تدور حول الآلهة والجن والغول وما تملكه من قوى مسيطرة لا يستطيع الانسان المصعود أمامها مهما كانت القوة التى يتمتع بها .

هذه القصص خلقها خياله ، وصـدقها هو ، ثم راح ينشرها ويذيعها بين الناس الذين يشاركونه الحياة ، فآمنوا بها معه واستقرت في وجدانهم وأنشأوا على شاكلتها قصصا مشـابهة لها ، ثم وصلتنا نحن بعد أن فقدت قدرتها عـلى الاقناع ، ولكن ما زال عطاؤها متجددا بالمتعة واللذة ، فلم نرفضها ، واستغلها الفن كمادة أولية يدور حولها أو يعيد صياغتها على نحو يخدم هدفه ، فالاسطورة قصة خرافية ابتدعها هذا الانسان البدائى ، وصاغها وفق هواه ، وحسبما أوحى به خياله الضحل المهزوز من صور ومرئيات ، « وبدا ها الانسان يتصور أن وراء هذه الطبيعة قوى خفية تؤثر فيـه ، فرهبها وأله مظاهرها ، وأعدد هذه الآلهة ، ووكل الى كل منها تدبيرا خاصا » (١) ، على نحو ما حدث عند اليونان وأساطيرها القديمة ،

---

(١) السيد عبد الحافظ عبد ربه ـ بحوث فى قصص القرآن ص٢٦ دار الكتاب بيروت .

في حين أن العرب ، كانت لهم أساطير تدور حول الجن والعفاريت وما وادى عبقر الا أثر من هذه الاوهام والخرافات ، وكتب التراث لا سيما جمهرة أشعار العرب ٠٠ مليئة بقصص الشعراء مع العفاريت الذين تصدوا لهم في غدوهم ورواحهم ، عندما تنقطع بهم الطريق ويلفهم الظلام ، ودافع تأليف الاساطير عند كل الشعوب البدائية واحد وهو العجز عن تفسير بعض الظواهر التى تفجؤهم ، وتكون فوق قدرة العقل الساذج ومخالفة للمألوف المعتاد ، ولكن اختلف مضمون هذه الاقاصيص عند كل جنس بشرى ، فعند العرب عفاريت وعند اليونان آلهة ، وذلك لاختلاف التركيب الفسيولوجى والنفسي عند كل منهما ٠٠ كل مجموعة من الافراد لا يمكن أن تتشابه أو تتقارب حتى اذا تماثلت في مرحلة بذاتها من العمر » (١) ٠

فاذا كانت أساطير اليونان أمدت شاعرهم العظيم «هوميروس» بمادة ثرية مكنته من أن يصوغ الياذته ، فمما لا شك فيه أن أساطير العرب سوف تؤثر فيهم تأثيرا مخالفا وعلى غير وتيرته ، حتى عندما اطلعوا على الالياذة لم يكن من الممكن ولا من المنطقى أن يحتذوا حذوها أو يقيسوا على قدها دون تباين أو اختلاف ، لان الفروق الفردية عند الفنان المنشيء والتى كونتها البيئة والثقافة والمعتقد الدينى هى التى تفرض هذا الاختلاف عند صوغ الاثر الفنى ، لا عند المجتمعات المتجانسة فحسب بل عند الافراد الذين يعيشون حياة واحدة « ويجب أن نفهم أن التقليد والاحتذاء شيء ، وأن التقاليد الفنية بعامة والشعر بخاصة ، شيء آخر ٠٠ نعم لقد كانت بعض التقاليد في يوم من الايام ابتداعا ، ولكنها رسخت وتأصلت حتى

---

(١) د٠ عبد الحميد يونس ـ الأسس الفنية للنقد الأدبى ص ١١٧ دار المعرفة ٠

أصبحت من العرف المرعى ، شأنها في ذلك شـــأن العرف الخلقى والاجتماعى ، وهى تفرض الشكل والقالب أكثر مما تفرض المـادة والموضوع ، وتتأثر البيئة العامة بحدودها المكانية والزمانية ، وتفسح المجال للفردية الذاتية ، ولا تقيدها الا بقدر ، موقف الشاعر منهـــا كموقف كل فرد من الناس في حرية التصرف والســـلوك داخل دائرة العرف المصطلح عليه » (١) .

فاذا كانت ملحمة هوميروس ، قد حددت الاطار الفنى الذى ينبغى أن تدور فيه الملاحم من بعده ، فان ذلك لم يمنع الاختلاف بينها كمـا سبق بيان ذلك ، حيث اتجهت الالياذة الى تمجيد البطولة الجسدية في أخيل ، ونحت الاوديسة منحى تقديس البطولة العقلية والاشادة بذكاء « أوليس » وكذلك عالجت الكوميديا الالهية والفردوس المفقود موضوعا دينيا ، في حين أن ملحمة « أورلاندو الغاضب » تضمنت قصة بشرية ، فهذا التباين فرضته الفروق الكامنة في الزمان والمـــكان والجنس والافراد ، ومن شأن هذه الفروض أيضا أن تصرفنا عن توقع التطابق بين ملاحم العرب والنموذج المقتفى الذى صنعه هوميروس ، فحسبهم بأن يحافظوا على الاطار العام وهو الاغراق في الخيـــال والطول ، فعلى أى نحو جاءت ملاحمهم ؟

لقد أسفر التتبع والاستقصاء ـ جهد المستطاع ـ عن أن أقدم نص يدل على استعمال كلمة الملاحم لنوع من الشعر هو نص الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » قال ان فلماجن أبوبيس ، كان بهـذى بأنه سيصير ملكا ، وقد ألهم ما يحدث في الدنيا دن الملاحم ، وكان

---

(١) المرجع السابق ص ٥٤ ط دار المعرفة سنة ١٩٧٢ .

أبو نواس والرقاشي يقولان شعرا على لسانه على مذاهب أشعار ابن أبى عقب الليثى » (١) ٠

ولكن صاحب الاغانى ينكر وجود ابن أبى عقب فيقول : « أخبرنى أحمد بن عبد الله بن عمار قال : حدثنى أحمد بن سليمان ابن أبى شيخ عن أبيه عن محمد بن الحكم عن عوانة ، قال : ثلاثة لم يكونوا قط ولا عرفوا : ابن أبى عقب صاحب قصيدة الملاحم وابن القرية ومجنون ليلى » (٢) ٠

وانكار الاصفهانى وجود هذه الشخصية ، لم يمنعه من الاعتراف بوجود فن الملاحم ، فهو يقول عنه في النص السابق : « صاحب قصيدة الملاحم » اذن القصيدة موجودة ، غاية الامر أنه ينكر نسبتها الى ابن أبى العقب الشخصية الموهومة في تقديره ، في حين أن صاحب « كشف الظنون » يقول عنه : « ان هذا الرجل كان معلم الحسن والحسين ، وملحمته منظومة لامية أولها :

رأيت من الامور عجيب حال لاسباب يسطرها مقالى

وجاء في التعليق على نص الاغانى سالف الذكر : « الملاحم جمع ملحمة وهى الواقعة العظيمة في الفتنة ، ولها علم خاص يبحث فيه عن معرفة أوقات الفتن ، بالدلائل النجومية » (٣) ٠

والشاعر « ابن أبى عقب » كان ينظم شعرا يضمنه وصف

---

(١) البيان والتبيين جـ ٢ ص ٣٦ ٠
(٢) الأغانى جـ ٢ ص ٩ ٠ مؤسسة جمال للطباعة والنشر بيروت ٠
(٣) المرجع السابق نفسه ٠

الاحداث والوقائع ، متنبئا بحدوثها في قريب من الزمان أو بعيده ، معولا في ذلك على استدلالات فلكية .

ومن هذا يتضح أن الملحمة أصبحت عندهم علما على نوع خاص من الشعر يسرد فيه صاحبه أحداثا مستقبلية ، مقتنعا بحتمية وجودها ، مسترشدا في ذلك بعلم النجوم ، فهذا خيال لم يرتبط بالماضي وأساطيره وانما استشرف المستقبل ، محاولا افراغه من غيبه المحبوء ، وسواء صحت النبوءة أو لم تصح ، فان الذى يعنينا هذه القصص التى سيقت فيها ، منسوجة من الخيال الواهم بأنها حقيقة مؤكدة آمن بها هو ، واقتنع الذين سمعوها ، فهم على يقين من صدقها كيقين الانسان الاول بحقيقة أساطيره ، جاء في « البيان والتبيين » ، « حدثنى حجر بن عبد الجبار قال : مر موسي ابن أبى الروقاء ، فناداه صباح الموسوس : يا ابن أبى الروقاء ، أسمنت برذونك ، وأهزلت ديك ، أما والله ان أمامك لعقبة لايجاوزها الا المخف ، فحبس موسي برذونه ، وقال : من هذا ؟؟ فقيل له : هذا صباح الموسوس ، فقال : ما هو بموسوس ، هذا نذير » .

ولقد ساق الجاحظ قصيدة معزوة الى أبى نواس ، يتكلف فيها المذهب الشعرى هذا على جهة السخرية ، لكن يدعيها الموسوس لنفسه ، ويذيعها في الناس حتى يقولوا عنه ، يستشف ما يكون في الغد المجهول (١) .

ويقول ابن أبى اصيبعة في كتابه « عيون الانباء » : أن أحد التجار أنشده قصيدة على هذا النمط أولها :

---

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٣١ .

اذا شرق المريخ من أرض بابل
واقترن النحسان فالحذر الحذر
ولا بد أن تجرى أمور عجيبة
ولا بد أن تأتى بلادكم التتر

ويضيف أن الرئيس « ابن سينا » تنسب اليه قصيدة فيما يحدث من الامور والاحوال ، عند قران المشترى وزحلٍ في برج الجدى، وهو أنحس البروج ، وجملة ما قيل في هذه القصيدة من أحوال التتر وقتلهم الخلق ، وخرابهم القلاع وقد رأيناه في زماننا ، وأول هذه القصيدة :

احذر بنى من القران العاشر وانفر بنفسك قبل نقر الناقر (١)

ويقول ابن خلدون : « وسمعت أيضا أن هناك ملاحم أخرى منسوبة لابن سيناء وابن عقب ، وليس في شيء منها دليل على الصحة لان ذلك انما يؤخذ من القرانات » (٢) .

لم يصدق ما فيها ابن خلدون ، ولكن غيره صدق واقتنع ، كما يتضح من النصوص السابقة ، ومع هذا فان الشعر الذى نسب الى ابن سيناء في هذا المضمار ، يدرج في نوع الملاحم ، ويطلق عليه هذا الاسم ، ولابن خلدون حديث طويل عن الملاحم ، سوف نجتزىء منه ما يفيد قضيتنا التى طرحناها للبحث ،حولٍ الملحمة في الشعر العربى، جاء في المقدمة : « فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة ابن مرانة من بحر

---

(١) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٦ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٧٧٦ .

الطويل على روى الراء ، وهي متداولة بين الناس ... ومن الملاحم بين أهل المغرب أيضا ، قصيدة تسمى التبعية أولها :

طربت وما ذاك منى طرب وقد يطرب الطائر المغتصب
وما ذاك منى للهو أراه ولكن لتذكار بعض السبب

قريبا من خمسمائة بيت أو ألف فيما يقال ، ذكر فيها كثيرا من دولة الموحدين وأشار فيها الى الفاطمى وغيره والظاهر أنها مصنوعة » (١) .

ولا يهم أنها مصنوعة ، المهم وجود الملحمة وأنها طالت حتى إقتربت من الالف بيت ، فنحن بصدد اثبات الملاحم ولا يعنينا القائل .

ثم يمضي ابن خلدون في حديثه فيقول : « ومن ملاحم الغرب أيضا قصيدة من عروض المتقارب ، على روى الباء في حدثان دولة بنى أبى حفص بتونس من الموحدين ، منسوبة لابن الأبار ، وقال لى قاضي قسنطينة ، الخطيب الكبير أبو على بن باديس ، وكان بصيرا بما يقوله ، وله قدم في التنجيم فقال لى : ان هذا ابن الابار ، ليس هو الحافظ الأندلسي الكاتب ، مقتول المستنصر ، وانما هو رجل خياط من أهل تونس ، تواطأت شهرته مع شهرة الحافظ ، وكان والدى رحمه الله تعالى ينشد هذه الابيات من هذه الملحمة وبقى بعضها في حفظى مطلعها :

عذيرى من زمن قلب يغر ببارقه الأشنب

ومنها :

---

(١) مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ٧٧٢ .

ويبعث من جيشه قائدا ويبقى هناك على مرقب
فتأتى الى الشيخ أخباره فيقبل كالجمل الاجرب
ويظهر من عدله سيرة وتلك سياسة مستجلب

ومنها في ذكر أحوال تونس على العموم :

فلما رأيت الرسول لمحت
ولم يرع حقا لذى منصب
فحذ في الترحل من تونس
وودع معالمها وأذهب
فسوف تكون بها فتنة
تضيف البرىء الى المذنب

ويمضي ابن خلدون قائلا : « ووقفت في المغرب على ملحمة أخرى في دولة بنى أبى حفص هؤلاء بتونس ، فيها بعد السلطان ابن أبى يحيى الشهير عاشر ملوكهم ، ذكر محمد أخيه من بعده ، يقول فيها :

وبعد أبى عبد الاله شقيقه ويعرف بالوثاب في نسخة الأصل

الا أن هذا الرجل لم يملكها بعد أخيه ، وكان يمنى بذلك نفسه .

ووقف بالمشرق على ملحمة منسوبة لابن العربى الحاتمى في كلام طويل شبه ألغاز ، لا يعلم تأويله الا الله ، لتتخلله أوفاق عددية ، ورموز ملغوزة ، وأشكال حيوانات تامة ، ورؤوس مقطعة ، وتماثيل من حيوانات غريبة ، وفي آخرها قصيدة على روى اللام ، والغالب أنها كلها غير صحيحة ، لأنها لم تنشأ من أصل علمى ..

فابن خلدون قاس هذه الملحمة بالمقياس العلمى ، فلما وجدها خلت منه أنكرها وأهمل اثباتها ، واكتفى بذكر مضمونها ، الذى

يلفتنا الى أهمية هذه الملحمة ، بما فيها من أحداث شاذة وغريبة ، ولاعتمادها أيضا على خيال حلق بعيدا عن أرض الواقع ، حتى أن ابن خلدون بعقله العلمي الدقيق قال انها رموز ملغوزة لا يعلم تأويلها الا الله ، ولكن ليته أثبتها اذن لأغنتنا عما سواها فيما نحن بصدده ، فيكفي أن يكون في الشعر العربي ملحمة على غرارها ، فالنتاج البشري عند كل الاجناس من هذا الفن مقل لم يعرف الكثرة ولا الاسراف في نظم الملاحم ، ولكن شاء الله أن يهمل فتضيع وحسبنا أنه سردلنا محتواها ، مما يشهد لها بأنها تتمتع بفنية رائعة .

ولنستمع الى ابن خلدون ، فهو مازال يحدثنا عن الملاحم ، حيث يقول : « ووقفت بالمشرق أيضا على ملحمة من حدثان دولة الترك ، منسوبة الى رجل من الصوفية يسمى الباجريض . وكلها ألغاز بالحروف أولها :

ان شئت تكشف سر الجفر يا سائلي
من علم جفر وصي والد الحسن
فافهم وكن واعيا حرفا وجملة
والوصف فافهم كفعل الحاذق الفطن
أما الذي قبل عصري لست أذكره
لكنني أذكر الآتي من الزمن
بشهر بيبرس بعد خمستها
بحاء ميم ، بطيسن نام في الكنن
شين له أثر من تحت سرته
له القضاء قضي ، أي ذلك المنن
فمصر والشام مع أرض العراق له
وأذربيجان في ملك الى اليمن

ومنهـــا :

وآل بوران لمـا نال طاهرهم
الفاتك الباتك المعنى بالسمن
لخلع سين ضعيف السن سين
آتى لا لوفاق ونون ذى قـرن
قرم شجاع له عقل ومشـورة
يبقى بحاء وأين يبعد نو سمن

ومنهـــا :

من بعد باء من الأعوام قتلته يلى المشورة ميم الملك نو السـن

ومنهـــا :

هذا هو الأعرج الحلبى فاعن به في عصره فتن ناهيـــك من فتن
تأتى من الشرق في جيش يقدمهم عار من القاف ، قاف جد بالفتن
بقتل دال ومثل الشام أجمعها أبدت بشجو على الاهلين والوطن
اذا أتى زلزلت باويح مصر من الزلزال هازال حـــاء غير مغتطن
طاء وظاء وعين كلهم حبسوا هلكا وينفق امـــوالا بـــلا ثمـــن
يســـير القاف قافا عند جمعهم هون به ان ذاك الحصن في سكن
وينصبون أخاه وهـــو صالحهم لا سلم الألف ســـين لذاك بنى
تمت ولايتـــهم بالحاء لا أحد من السنين يدانى الملك في الـزمن

ويقال : انه أشار الى الملك الظاهر وقدوم أبيه عليه بمصر :

يأتى اليه أبوه بعد هجـرته وطـــول غيبته والشـــظف والزرن

وأبياتها كثيرة ، والغالب أنها موضوعة ، ومثل صنعتها كان في القديم كثيرا أو معروف الانتحال » (١) .

ومن مراجعة هذه الأبيات على قلتها ، نستطيع أن نتعرف على مسار الملحمة عندهم ، فهي تتجه الى محاولة الكشف عن أسرار المستقبل فيما يتعلق بالمواقع الحربية والفتن التي تتعرض لها البلاد والعباد ، ولو استطعنا فك الرموز ، أو عرفنا ما تشير اليه الحروف التي أكثرمن ذكرها في ملحمته هذه ، لخرجنا بقصة فريدة ونادرة ، ولو أفصح الشاعر عن مراده ، لاعطانا ملحمة اكتملت فيها كل المقومات الفنية على غرار ما يطلبه عشاق الالياذة من النقاد وعلماء الأدب ، ولأصبحت قصة المستقبل عند منشدها هي قصة الماضي عندنا نحن ، ولكن اختلاف التناول لا يضر بالاثر الفني على أي حال .

فمن مجموع هذه النصوص التي أجملنا اقتباسها والاشارة اليها ، بل من أمثالها في شتى المراجع والأصول ، تتجلى لنا الحقائق الآتية :

أولا : أن كلمة الملاحم أطلقت على نوع من الشعر ، يصف ما يجرى على الدول والأمم من أحداث وشجون ووقائع ، مما يتضاف الى المستقبل مما يستدل عليه من النجوم ، سواء صحت أو لم تصح ، كما جاء ذلك في البيان والتبين والاغاني ، ومقدمة ابن خلدون وغيرها مما أثبتناه .

ثانيا : أن هناك قصائد مطولة سميت ملاحم وصلت الى حد الألف بيت وقد تكون هناك قصائد تفوقها عددا ، وأثبتت كتب الأدب والتاريخ وجودها ، وقد أشرنا الى ذلك من النقول عن ابن خلدون وغيره .

---

(١) يراجع في كل ما سبق مقدمة ابن خلدون من ص٧٧٣ الى ص٧٧٨ تحت عنوان : فصل في ابتداء الدول والأمم وفيه كلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر .

ثالثا : ان هذا اللون من الفن وجد في القرن الاول على يد ابن أبى عقب معلم الحسن والحسين رضي الله عنهما - على شك في وجود هذا الشخص - أنظر الأغانى - الذى أنكر ذلك وان كان قد أثبته غيره ، هذا بالنسبة للشخص أما الملاحم فهى موجودة بيقين خاصة فيما تلا القرن الأول الهجرى من عصور كما جاء في البيان والتبيين ومقدمة ابن خلدون .

رابعا : ان الاطلاق العصرى لكلمة الملاحم على معانى القصائد المطولة التى تتناول التاريخ الأسطورى للأمم والدول مثل الياذة هوميروس لا يختلف عن الاطلاق العربى القديم عند انشادهم لملاحمهم الا في شيء واحد : هو أن الملاحم العربية القديمة كانت تقص ما عساه أن يكون من أحداث الأمم والدول في المستقبل المستور بضباب الجهل به ، فهو خيال يحاول استراق السمع دون أن تحرقه الشهب ، وأما الملاحم في آداب الامم الاخرى ، فتتناول قصص تاريخها الماضي وما يشيع فيه من أساطير ، وفي يقينى انه اختلاف هين ويسير اذا راعينا أن كلا منهما يؤسس قصصه على الخيال ، وان مدار خيالهما في اتجاهين متعاكسين .

وبعد فالذى عرضناه من النصوص يلقى ضوءا خافتا وضئيلا على الملاحم ومحتواها الفكرى والشعورى ، وهو ان كان كافيا ومقنعا في اثبات دعوى وجود الملحمة في الشعر العربى القديم ، غير أنه لا ينقع الغلة ولا يشفى الغليل ، فقد كنا نريد نصا مكتملا من أوله الى آخره ، لنخضعه للتحليل والدراسة ، وليكون شاهدنا الذى لا يقبل الجدل ولا المناقشة ولعل الله يهدينا لمثل هذا في مستقبل الأيام ، أو يرشد غيرنا من الباحثين فيصلوا الى ما أعيانا الاهتداء اليه ، وان كان فيما ذكرناه الغنية والكفاية .

دكتور عبد اللاه محمود مهروس
مدرس الادب والنقد بكلية اللغة العربية
بأسيوط